العصر العباسي الأول
١٣٢ ـ ٢٣٤ هـ

شهدتْ الحياةُ الأدبية في العصر العباسيّ تقدماً ملحوظاً . ولاسيما بعد التوسّع الحضاريّ وانتشار الثقافة الاسلامية في أوساط واسعة من المجتمع . وانفتاح الخَلق على عوالم جديدة من المعرفة .

وكان الشعرُ ـ وهو ديوان العرب ـ العصبَ النابضَ في قلب المجتمع العباسي . والمرآة الصادقة التي انعكست عليها صورُ الحياة وأحداثها . والدفترَ الأمينَ الذي قُيّدتْ فيه أفكارُ الناس وأخيلتُهم ومشاعرُهم وأحاسيسُهم .

وقد كثر نظم الشعر في هذا العصر وازداد عدد الشعراء زيادةً لانجد لها نظيراً في أي عصر آخر(٣٨) . أما الفنونُ الشعريّةُ فتكاد تكون نفسها . وانْ دخلها التطوير بحكم الحياة الجديدة . فنلقى المديخ والفخر والهجاء والرثاء . كما نلقى الغزلَ والخمريات والوصف والطرد والشكوى والعتاب والاستعطاف ... وقد استجدّتْ جوانبُ جديدةٌ لها صلة بالموضوعات السابقة . أو أنها توليد لها وتجديد .

الموضوعات الشعرية :

المديح :

يُعدُّ المديحُ من أبرز الفنون الشعريّة منذُ عصر ماقبل الإسلام . وهو يشكّلُ القسمَ الأوفى في نتاج الشعراء . وقد نشأ في بادىء الأمر إعجاباً بالفضائل العربية مثل . السماحة . والكرم . والحلم . والمروءة . والعفّة . والاباء . والشمم . والعدل . والقوّة . والشجاعة . وما الى ذلك من الصفات الحميدة . ثم أُضيف اليها صفات أخرى مستمدّة من القيم والمُثل الاسلامية . مثل . التقوى . والورع . والتواضع . والوقار . وخفض الجناح .. وظلّتْ هذه الفضائلُ والمحامدُ ترِدُ في شعر المديح في عصر بني امية . وأن تحوّل فريقٌ من الشعراء في مديحهم لخدمة أغراضهم الخاصة وفريق آخر لخدمة أحزابهم السياسية وترويج ماعند هذه الأحزاب من مبادىء وأفكار .

---

(٣٨) ينظر في الادب العباسي للدكتور علي الزبيدي ص ٢٢ ـ ٢٣ .

ولما جاء العباسيون فتحوا الأبواب على مصاريعها للشعراء المداحين ليدخلوها، مدافعينَ عنهم، ورادّين الخصوم، فجاؤوا مسرعين زُرافاتٍ ووحدانا، يتغنّون بعظمتهم وقوّة سلطانهم، ويُضفون عليهم تلك الفضائل التي توارثوها عن السلف. وقد طرب الخلفاء لهم، واستأنسوا بهم وخلعوا عليهم، وحضوهم بالأموال. من ذلك ما يُروى أن «الربيع حاجب المنصور قال، قلت يوماً للمنصور: انّ الشعراء بباك وهم كثيرون طالت أيامهم، ونفدتْ نفسُهم. قال: اخرجْ إليهم فاقرأ عليهم السلام، وقل لهم: مَنْ مدحني منكم فلا يصفني بالأسد، فانما هو كلب من الكلاب، ولا بالحية، فانما هي دُويبة تأكل الترابَ، ولا بالجبل فانّما هو حجر أصم، ولا بالبحر فانّما هو غَطامِط(٣٩) لجب، ومن ليس في شعره هذا فليدخلْ ومن كان في شعره فلينصرفْ. فانصرفوا كُلّهم الاّ ابراهيم بن هَرْمة، فانّه قال له: أنا (٣٩)

ياربيع، فأدخِلني. فأدخله، فلما مثُل بين يديه، قال المنصور يارَبيعُ، قد علمت أنه لا يُجيبك أحد غيره، هاتِ يا ابن هرمة، فأنشده قصيدتَهُ التي يقول فيها:

له لحظات عن حفافيْ سريره ... إذا كُرّها فيها عذابٌ ونائلُ
لهم طينةٌ بيضاءُ من آل هاشم ... إذا اسودّ من كوم التراب القبائلُ
إذا ما أبى شيئاً مَضى كالذي أبى ... وإنْ قال إنّي فاعلٌ فهو فاعلُ

فقال: حسبُك، هاهنا بلغت، هذا عين الشعر، قد أمرتُ لك بخمسة آلاف درهم». (٤٠). ومما يُروى أيضاً أن حماد عجرد دخل على أبي جعفر المنصور بعد موت أبي العبّاس أخيه فأنشدهُ:

أتوك بعد أبي العبّاس إذ بانا ... يا أكرمَ الناسِ أعراقاً وعيدانا
لو مَنّ عَودٌ على قومٍ عُصارتُه ... لَمَنّ عودُك فينا الشُّهدَ والبانا

فأمر له بخمسة آلاف درهم(٤١). ويُكيلُ الشاعرُ الحسين بنُ مُطير الأسدي الفضائلَ والمحامد للخليفة المهدي ويجعله عظيماً ماجداً أديباً قائداً بطلاً، فيقول:(٤٢)

---

(٣٩) غطامط، عظيم الامواج

(٤٠) العقد الفريد ١: ٢٢٠، وينظر ديوان ابراهيم بن هرمه ص ١٩٦

(٤١) العقد الفريد ١: ٢١٩.

(٤٢) شعر الحسين بن مطير الاسدي ص ٣٢.

فتىً هو من غير التخلّق ماجدٌ ... ومن غير تأديب الرجال أديبُ
علا خَلْقه خلقَ الرجال وخُلْقه ... اذا ضاق أخلاق الرجال رحيبُ
إذا شاهد القواد سار أمامهم ... جرى على ما يستقون وثوبُ
وإنْ غابَ عنهم شاهدتُهم مهابة ... بها يقهرُ الأعداد حين يغيبُ

يعفُّ ويستحي اذا كان خالياً ... كما عفَّ واستحيا بحيثُ رقيبُ

وهكذا تَقَبّل الخلفاء هذه النعوت، واستحسنوها، وعدّوها جزءاً من مآثرهم التي ورثوها عن آبائهم، وحبّذوا أنْ تشيع بين الناس، وأن تدوّن في بطون الكتب. وإذا رجعنا الى القصائد المدحية في هذا العصر، ودقّقنا النظر في شكلها نجد بعضاً منها لازال يهتدى بالموروث القديم في الوقوف على الأطلال، وذكر عهود الهوى، ووصف معاناة الرحلة، ومثال على ذلك قصيدة علي بن الجهم في مدح الخليفة المعتصم، منها قوله(٤٣):

قفوا خيّوا الديار فإنّ حقّاً ... علينا أنْ نحيي بالسّلام
حرامٌ أنْ تخطاها السّطايا ... ولم نذرفْ من الدّمع السجام

وبعد وصف متاعب السفر، ومكابدة الناقة لمشقة الطريق، يتخلّص الى المدح، مبيناً شجاعة الخليفة وشهامته وقدرته على توفير الأمن وتثبيت عُرى الإسلام:

وأنتَ خليفةُ الله المعلّى ... على الخلفاء بالنّعم العظام
ليهنك يا أبا اسحاق مُلْكٌ ... يجلُّ عن المفاخر والمسامي(٤٤)
لسيفك دانت الدنيا وشُدّتْ ... عُرى الإسلام من بعد انفصام

ومما يلاحظ أن هذا النظام في بناء القصيدة ولاسيما المقدمة الطللية قد أصابه شيء من التجديد، سواء من الناحية الموضوعية أم من الناحية الفنية. فهي من الناحية الموضوعية لم تعد أوعية تسكب فيها الدموع حسرة على المنازل الدائرة وعهود الحب الضائعة فحسب، بل تحولت أيضاً عند بعضهم الى منابر يُعلنون من فوقها

---

(٤٣) ديوان علي بن الجهم ص ٤٠.
(٤٤) أبو اسحاق، كنية المعتصم.

اراءهم في الحياة . سائرين في نفس الطريق التي مهّدها بعض الشعراء الأمويين قبلهم من أمثال ذي الرمّة والقطامي والعجاج . فما يُصيبها من الاقفار والتغير يصيب الكائنات كلها . فلا دائمي للحزن . ولاسبيل للأسف ، لأنّ كلّ شيء مصيره الى بلى وفناء . غير أنها لم تتحول على كل حال الى قالب فلسفي . إنما هي نظرات جزئية توصلوا إليها وبثوها فيها . ونجتزيء بهذه الأبيات التي استهل بها بشار أرجوزته البائية في مدح عُقبة بن سَلْم . فانه ضمنها فنوناً من هذه المعاني التي أشرنا اليها ، يقول(٤٥)

ياديارَ بين النزع والجناب	عفا عليها عُقبُ الأحقاب
قد ذهبتْ والعيشُ للذّهاب	لما عرفناها على الخراب
ناديتُ على أنسح من جواب	ومابدار الحي من كرّاب(٤٦)
إلا مطايا الجرجل الصخّاب	وملعب الأحباب والأحباب(٤٧)
فانقلبتْ والدهرُ ذو انقلاب	ماأقربَ العامرَ من الخراب

فهو لايكتفي بتجديد موقع المنزل ، ولابتعداد بعض بقاياه . ولا بسؤاله له واستعجامه عليه . بل يذهب أيضاً الى أن ما أفناه هو تعاقب الأيام والليالي عليه ، كما يخرج الحديث عن دثوره وتغير آثاره بالحديث عن الدهر والحياة . فاذا كان قد بلي فإنّ الحياة نفسها مصيرها الى الفناء والزوال . واذا كان قد تغير فالأيام لاتدوم على حال بل تتبدّل من حال الى حال »(٤٨)

وهناك شعراء أهملوا وصف الاطلال والناقة والرحلة . واستعاضوا عنها بالغزل كما نرى في مديح مروان بن أبي حفصة لمعن بن زائدة . والخليفة المهدي الذي يقول فيه القصيدة التي مطلعها ،(٤٩) :

طرقتْكَ زائرةٌ فحيّ خيالها	بيضاءُ تخلطُ بالحياء دلالها
قادتْ فؤادك فاستقاد ومثلُها	قاد القلوب الى الصبا فأمالها

---

(٤٥) ديوان بشار بن برد ١ : ١٤٠

(٤٦) من كراب ، من أحد .

(٤٧) الصخاب ، كثير الضليان .

(٤٨) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ص ٢٢ .

(٤٩) ديوان مروان بن أبي حفصة ص ٩٦ .

ومنهم من لم يلتفت الى الطلول ولا الى جمال الحبيبة والتغزل بها . بل جعل الخمرة فاتحةً لقصيدته المدحية . وهذا اللون من الافتتاحية نجده عند شعراء كثيرين أمثال علي بن جَبلة الملقب بالعَكوك(٥٠) . وأشجع السلمي(٥١) . وعبد الله بن عبد الحميد اللاحقي(٥٢) . ومحمد بن وهيب الحميري(٥٣) . ومسلم بن الوليد الذي يقول في احدى قصائده في مدح الخليفة هارون الرشيد :(٥٤)

هات اسقنيها طال بي الحبسُ ... من قهوةٍ بائعُها وكّسُ
زرقيّةُ الدارِ رصافيّةٌ ... أغلى بها الثّمانُ والقسُّ
كأنّها في الكأسِ ياقوتةٌ ... وهي إذا ما مُزِجتْ وَرْسُ
في مجلسٍ للقصفِ ريحانُهُ ... عِينُ المها والبَقَرُ الوُحْسُ

ومنهم من تحدث عن حالته أو عن وضعه النفسي . أو عن شيء يُقلقه ويزعجه . من ذلك مثلاً قول منصور النمري في مطلع قصيدة يمدح بها الخليفة هارون الرشيد :(٥٥)

يازائرينا من الخيام ... حيّاكما الله بالسّلامِ
لم تطرقاني وبي خراكُ ... الى حلالٍ ولا حرامِ
هيهات للّهو والتصابي ... وللغواني وللمدامِ
أقضّ جهلي وثابَ حلمي ... ونَهْنَهَ الشّيبُ من غرامي
لله حِسبي وتربُ حِبّي ... ليلةَ أعياهما مرامي

---

(٥٠) شعر علي بن جبلة الملقب بالعكوك ص ١١٢ .
(٥١) أخبار الشعراء المحدثين ص ١١٣ . وينظر أشجع السلمي ، حياته وشعره ص ٢٥٥ .
(٥٢) أخبار الشعراء المحدثين ص ٩٦ .
(٥٣) الاغاني ١٩ : ٧٤ ـ ٩٦ .
(٥٤) شرح ديوان صريع الغواني ص ٣٧٩ .
(٥٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٤٧ .

إنَّ التألم والشكاية من الضعف والهزال ، وهجوم الكبر ، واشتعال الرأس بالشيب ، والجزع من الحياة ، ولوم الدهر يردُ بكثرة في مقدمات القصائد كما نلاحظ مثلاً عند مروان أبي حفصة ، وأبي الشيص ، والحسين بن مطير ، وابن مناذر ، والعكوك ، ومنصور النمري(٥٦) . ومن جميل ماجاء في هذا اللون قولُ أشجع السلمي ، وهو يصف آلامه التي أضحت ترافقه بعد أن ذهب ماءُ شبابه ، وخارت قواه واعتلى الشيبُ مفرقه ، في مطلعِ قصيدة يمدح بها الفضل بن الربيع(٥٧)

غلبَ الرُّقادُ على جفونِ المُسعد ... وغرقْتُ في سَهَرٍ وليل سَرْمَدِ
قد جدَّ بي سهرٌ فلم أرقد له ... والنومُ يلعبُ في جفونِ الرُّقَّدِ
ولطالما سَهِرَتْ بحبِّي أعين ... أهْدِي السُّهادَ لها ولا أتهدد
أيام أرعى في رياض بطالةٍ ... ورد الصبا منها الذي لم يورد
لهوٌ يساعدهُ الشَّبابُ ولم أجدْ ... بعد الشَّبيبةِ في الهوى من مُسْعِدِ
ماالدهرُ إلَّا الناشئانِ تواليا ... يومٌ يروحُ لنا ويومٌ يغتدي
فالأمسُ ليس براجع لك عهدهُ ... واليومُ ليس بمدركٍ مافي الغد

ومن المقدمات التي استهوت عدداً من الشعراء العباسيين ، وصف الطبيعة وما فيها من مباهج سواء كانت صامتة أم متحركة . ويكاد أبو تمام الطائي يكون من المبرزين الاوائل فيه ، من ذلك قوله في وصف الربيع في مقدمة قصيدة مدح بها الخليفة المعتصم(٥٨)

ياصاحبيَّ تقصَّيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصوَّرُ
تريا نهاراً مشمساً قد شابه ... زهرُ الرُّبى فكأنما هو مقمرُ
دُنيا معاشٍ للورى حتى إذا ... جُلي الربيعُ فإنما هي منظرُ
أضحتْ تصوغُ بطونُها لظهورها ... نَوْراً تكادُ له القلوبُ تنوَّرُ

بهذا الأسلوب الرائع الممتع يسترسل الشاعر في وصف الربيع، ويُقدِّمُ لوحة جميلة للطبيعة الزاهية الضاحكة التي تملأ القلوب بهجةً ومسرةً ، ويزاوج بين هذا البهاء والصفاء والعطاء للطبيعة وبين كرم الخليفة وجوده .

---

(٥٦) طبقات الشعراء لابن المعتز ، المقدمات ٤٩ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢٤٥ .
(٥٧) أخبار الشعراء المحدثين ص ٩٥ .
(٥٨) ديوان أبي تمام ٣ : ١٩٤ .

نستشف من الشواهد السابقة أن الأسلوب في القصيدة المدحية أصبح يتراوح بين الجزالة والسهولة . والقوة والليونة . يضاف الى ذلك أن الأوزان أصبحت طويلها وقصيرها ـ قوالب لهذا الفن « مع ان قصائد المديح بالذات كان أساسها في العصر الجاهلي والإسلامي أيضاً الجزالة والفخامة وقوة أسر الألفاظ وطول البحر الشعري ، ليتلاءم مع جزالة الألفاظ وفخامة التعبير ، حتى إننا لو نظرنا في قصائد المديح قبل القرن الثاني لوجدنا غالبيتها في بحري الطويل والبسيط لانهما يحققان الغاية المبتغاة من شعر المديح »(٥٩) .

ومما يلاحظ في موضوع المديح في العصر العباسي المبالغة المفرطة التي تصل أحياناً الى حد مُستهجن ، مثل قول الحسين بن مُطير الأسدي ، فقد رفع المهدي فيه عن البشر ، وكاد ينزله بمنزلة الخالق ، فهو اطهر الناس ، وأولاهم بالتقديس وأوسعهم كرماً ، بل من نوره تتغيّرُ الألوان . ومن تلألؤ وجهه يتألّقُ وجهُ الأرض ومن يده تدبُّ الحياةُ في الأعواد اليابسة .(٦٠)

لو يُعبدُ الناسُ يامهديُّ أفضلهم ... ماكان في الناس الا أنت معبودُ
أضحتْ يمينك من جودٍ مصوّرةً ... لابل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ
لو أنّ من نوره مثقالَ خردلةٍ ... في السود طرّاً إذنْ لابيضّت السُّودُ
من حسن وجهك تضحي الأرضُ مشرقةً ... ومن بنانِك يجري الماءُ في العُودِ(٦١)

ومن المبالغة أيضاً قول أبي نواس في هارون الرشيد :(٦٢)

وأخفت أهل الشركِ حتى إنّه ... لتخافُكَ النُطَفُ التي لم تُخلَقِ

وقوله :(٦٣)

كيف لا يُدنيكَ مِنْ أملٍ ... مَنْ رسولُ اللهِ من نَفرهْ

---

(٥٩) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٣٧٢ .
(٦٠) شعر الحسين بن مطير الاسدي ص ٤٨ وينظر الشعراء من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ص ٣٩٧ .
(٦١) في البيت إقواء .
(٦٢) ديوان أبي نواس ص ٤٠١ .
(٦٣) ديوان ابي نواس ص ٤٣٠ .

وقد علّق المبرد على هذا البيت بقوله : « وهو لعمري كلامٌ مستهجنٌ موضوع في غير موضعه . لأنّ حقّ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ يُضاف إليه ولا يضاف الى غيره »(٦٤) وثمة ألوانٌ جديدةٌ في المديح ، استحسن الشعراء النظم فيها ، منها مدح المدن ، وبيان محاسنها ، وتَعداد فضائلها ومآثرها ، وما فيها من ساحات وأبنية وجوامع وربى وأنهار وبساتين ... وقد حظيتْ الكوفةُ وبغدادُ والبصرةُ بكثيرٍ من هذا الشعر ، ولاسيما بغداد ، لأنها أمُّ الدنيا ، وموطنُ الملكِ ، ومحطُّ الأنظارِ ، ومأوى الشعراء والأدباء ، ولا عجبَ اذا قال عمارة بن عقيل في مدحها :(٦٥)

أعابتْ في طولٍ من الأرضِ والعَرْضِ كبغداد داراً إنّها جنّةُ الارض
صفا العيشُ في بغداذ واخضرّ عودُهُ وعيشٌ سِواها غيرُ صافٍ ولا غَضِ

وشاع بين العباد والزهاد والمتصوفة مديحُ الله سبحانه وتعالى ، مستغنين به عن مدح العباد(٦٦) ، فإنهم وجدوه خير ناصر لهم ومعين على حوادث الدهر وصروفه ، وانه يغنيهم من الوقوف على أبواب الخلفاء ، واراقة ماء الوجه على موائد الأغنياء ، مثل قول عبدالخالق بن عبدالواحد الانصاري :(٦٧)

استدحتُ الغنيَّ عن مدح النا س بصدقِ المديحِ والإحكامِ
بكلام أشادَ إعظامهُ النا سَ وقالوا ، قُلْ ياصدوقَ الكلامِ
فرجوتُ النجاةَ من كبوة النا رِ وفوزاً بالدارِ دارِ المَقامِ
ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي فأفرط تُ وأنتَ الغفورُ للظلّامِ
فاعفُ عنّي يامالكَ العفوِ واغفرْ لي ركوبي هَوْلَ الذنوبِ العظامِ
كذّبَ العاذلونَ بالله ، ما لي بهِ نِدٌّ ومالهُ من مُسامِ

أمّا المديح النبوي في هذا العصر فكان نادراً جداً . وقد وقفتُ على قصيدة طويلة للامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠ هـ) مطلعها :(٦٨)

---

(٦٤) الكامل ٢ : ١٧ .
(٦٥) تاريخ بغداد ٤ : ٦٨ ، بغداد مدينة السلام ص ٤٠ .
(٦٦) ينظر التيار الاسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ٤٨٢ ـ ٥١٢ .
(٦٧) الورقة ص ٩٠ .
(٦٨) السمو الروحي في الأدب الصوفي ص ٤٢٦ .

يا سيد السيادات جئتك قاصداً أرجو رضاك واحتمي بحماكا

ذكر فيها سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وصفاته ومعجزاته . ويبدو واضحاً ان المتأخرين قد تأثروا بها . خاصّةً الإمام البوصيري الذي اشتهر بنظم المدائح النبوية في القرن السابع للهجرة .

وتجدر الإشارة إلى ان شعر المديح حوى حكماً وأمثالاً كثيرة . أطلقها الشعراء ترسيخاً لأقوالهم وتوطيداً لتعليلاتهم . وقد اشتهر بها أبو تمام . وبلغت القمة عند أبي الطيب المتنبي من بعدُ . من ذلك قول أبي تمام من قصيدة مدح بها أحمد بن أبي دؤاد .(٦٩) :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُويَتْ أتاح لها لسانَ حسود
لولا اشتعالُ النار فيما جاورَتْ ما كان يُعرفُ طِيبُ عَرْفِ العُود

وقال في قصيدة مدح بها خالد بن يزيد بن مَزْيَد الشيباني :

وليس يُجلِي الكَرْبَ رَمحُ مُسَدَّدٌ إذا هو لم يُؤنَسْ برأيِ مُسَدِّدِ